كلمة الدكتور وحيد بهمردي

لماذا نقرأ جودت حيدر اليوم؟

للإجابة عن هذا السّؤال ينبغي البحثُ عن الأبعاد الإنسانيّة والعالميّة الّتي تميّز نتاج أيّ أديب في شرق العالم وغربه، وفي أيّ عصر من العصور. فالأديب أو الشّاعر يتجاوز الزّمان والمكان بعدما يتحرّر أدبُه عن القيود الزّمانيّة والمكانيّة الّتي ينشأ الأدب فيهما، وهذا يُزيل الفرق والتّفاضل بين الأدب القديم والأدب الحديث وبين شعر البادية وشعر الحضَر وبين ثقافة الشّرق وثقافة الغرب، فيصيرَ الإنسانُ في أبعاده الإنسانيّة هو مَن يُعطي الأدبَ هويّته ويجعلُه أدبًا عالميًّا، وليس القدماء والمحدَثون أو البدو وأهلُ الحضَر أو الشّرقيُّ والغربيّ.

لقد شغلت هذه المعضلة الأدباء والنّقاد منذ العصور القديمة، وكانت الموازنة بين الشّعراء والمفاضلة بين المتقدّمين والمحدَثين قضيّةً إشكاليّة تناولها الكثيرون؛ فقبل ألف عام كتب الأديب أحمد بن فارس مدافعًا عن "أدباء عصره" قائلاً: "هل الدّنيا إلاّ أزمانٌ، ولكلّ زمانٍ منها رجال؟... ومَن قَصَر الآدابَ على زمان معلوم، ووقَفَها على وقت محدود؟"

واليومَ نحن نقولُ: لزماننا هذا رجالٌ، ولعصرنا هذا أدباءٌ وشعراء، ومَن قصر الآدابَ على زمن دون آخر، أو على مجموعة من الأدباء دون آخرين؟ مَن قال إنّ معرفة أدب المهجر والمهجريّين اللّبنانيّين في العصر الحديث يقتصر على البعض دون الآخر؟ أليس الأدب مرآة تعكس مشاعر الإنسان؟ أليس الأديب والشّاعر لسانَ حال كلّ من يشاركه المشاعر والموضوعات الخارجيّة الّتي أنجبت أدبًا أو شعرًا كان وليدَ قرانٍ معنوي بين الشّاعر والموضوع الخارجي أو بين الشّاعر والتّجربة الّتي مرّ بها، تمامًا كما هو حال كُثُرٍ يمرّون بمثل تلك التّجربة، فيأتي الشّاعر ليُخبرهم عن حالهم ومشاعرهم، فيكونَ القرانُ عندئذٍ بين النّصّ والمتلقّي، ويصيرَ النّصُّ الشّعريُّ مرآةً يرى الإنسان مكنوناته على صفحتها جليّةً أمام بصيرته، وتتحقّق لذّةُ تحقّق الذّات الإنسانيّة في النّصّ، وإنْ شئتَ فقل: تحقّقُ النّصّ في الذّات الإنسانيّة.

لماذا نقرأ جودت حيدر اليوم؟

لا نقرأه لإنّه جودت حيدر، بل لأنّه تمكّن من أن يكون في أدبه لسانَ حال الكثير من أولئك الّذين تركوا أوطانهم واغتربوا بحثًا عن لقمة العيش وعن النّجاح. نقرأه لإنّه كان رجلاً من رجال زمانه، القرنِ العشرين، استطاع أن ينقل إلى مَن يقرأه المشاعرَ الّتي تكتنف القارئ ولكنّه يرى نفسَه عاجزةً عن التّعبير عن تلك المشاعر كما يقدر على ذلك أديب وشاعر مثلُ جودت حيدر. نقرأه لأنّه قدّم مرآةً تعكس للبصيرة صورةً عن الإنسان لا تستطيع إنسان العين أن تراها. فالعين لا ترى نفسها إلاّ إذا قابلت المرآة على الرّغم من أنّها تستطيع أن ترى كلَّ ما سواها، فترى العينُ عندئذٍ عينَها. الشّاعر هو عين النّاظر في مرآة الشّعر، ولذلك نقرأ جودت حيدر حتّى يُخبرَنا عمّا خَبِرناه دون أن نتمكّن من إخبار أنفسِنا عن ذلك بالتّعبير نفسه.

لماذا نقرأ جودت حيدر اليوم؟

للسّبب نفسِه الّذي ما زلنا نقرأ قصّة سندباد. نعم، قصّةُ سندباد الّذي عَبَر البحار بحثًا عن المجد في سفينة الجِدّ والجُهْد، تمامًا كما عبر جودت حيدر المحيط الأطلسيّ إلى العالم الجديد الّذي كانت أحلامُه تُراود نفوسَ الشّباب الطّموحين آنذاك. ربّما، لهذا السّبب قال أنيس مسلَّم عنه في تقديمه لكتاب مشوار العُمر: "أحبَّ البحرَ، قاربَه، حاورَ أمواجَه والنّسائم، فكتب فيه وأجاد... حمل محبّةَ لبنان ورائحةَ ترابه عبرَ البحور إلى أطراف الأرض، فكان طائرَ الأرض وطائرَ البحر الغِرّيد".

يقول جودت حيدر في شعر نظمه بالإنجليزيّة ما ترجمتُه: "إنْ بلغتُ ذُرايَ اليومَ، سأجتازُ حدودَ الزّمن، لأكتُبَ اسمي على جدار الغد".

وقال أبو العلاء المعرّي قبل جودت حيدر بألف عام:

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ – لآتٍ بما لم تستطِعْهُ الأوائلُ

وهذا تأكيدٌ على قول ابن فارس في رسالته الشّهيرة: "ولِمَ تأخذُ بقول من قال: ما تَرك الأوّلُ للآخِر شيئًا، وتَدَعُ قولَ الآخَر: كم تَرَكَ الأوّلُ للآخِر!"

نعم، نقرأ جودت حيدر اليوم لإنّنا ما زلنا نقرأ أبا العلاء، وما زلنا نقرأ رحلة السّندباد، وما زلنا نقرأ رحلة الإنسان في مشوار العمر في كلّ زمان ومكان. لا يوجد أديبٌ أو شاعرٌ متأخّر، فمَن يتأخّرُ عمّن قبلَه هو متقدّمٌ على من هو بعدَه.

لهذا السّبب نقرأ جودت حيدر اليوم.
ولهذا السّبب سوف يقرئون جودت حيدر غدًا.